حملة مراد الرابع واحتلال بغداد

تحرك السلطان على رأس قواته من اسكودار في شوال سنة ١٠٤٧ هـ / ١٦٣٨ م ، والتحقت بالجيش خلال التقدم قوات من عدد من مدن الاناضول اضافة الى عدد كبير من القبائل العربية بقيادة (امير الصحراء) ابن ابي ريشة ، وقام رجال هذه القبائل بدور مهم في تمهيد الطريق امام قوات السلطان وتزويدها بالمؤن ايام حصارها لبغداد . وفي منتصف تشرين الثاني ١٦٣٨ ، وصلت القوات العثمانية قرب بغداد وأقيم معسكر السلطان بالقرب من الاعظمية .

وكانت بغداد تقوم على الجانب الشرقي من دجلة ، ويحيط بالمدينة سور طوله ثلاثة اميال مبني بالآجر ويكتنفه خندق عرضه ستون ذراعاً يمده نهر دجلة بالمياه . وكان قسم من السور المحيط بالجهة الشرقية من المدينة دائريا تقريبا ويبلغ ارتفاعه ما بين ١٠ الى ١٥ ذراعا . وتنتصب في الزوايا الرئيسة من السور ابراج كبيرة اقيمت فيها المدافع ، في حين تقوم ابراج أصغر تقع على مسافات قصيرة فيما بينها يبلغ عددها مائة وثمانية عشر برجاً في جوانب السور المواجهة للبر وخمسة واربعين برجاً تشرف على النهر ، وكان بين كل برج وآخر خمسون فتحة لاطلاق نيران المدافع والبنادق ، وبين كل فتحة واخرى خطوة واحدة . وفي الزاوية الشمالية الغربية من السور تنتصب القلعة الداخلية التي يطوقها حائط مفرد يبدأ من باب المعظم الى دجله ، ترتفع عليه ابراج صغيرة نصبت فيها المدافع ، ويحدق بسورها خندق ضيق . وهذه القلعة تضم الثكنات ومخازن الذخيرة والمؤن بالاضافة الى الخزينة ، والى جوارها من جهة الجنوب يقوم السراي حيث مقر الوالي . وفي الاسوار ابواب اربعة ، ثلاثة منها من جهة البر وهي باب المعظم في الشمال ، والباب المظلم او باب كلواذى في

الجنوب ، والباب الابيض او الباب الوسطاني في الشرق . اما الباب الرابع فهو يواجه النهر ويسمى باب الجسر . والاخير يربط ما بين بغدا والجهة المقابلة من دجلة حيث تنتصب قلعة الطيور .

كان عدد افراد الحامية الايرانية يزيد على ٣٠٫٠٠٠ رجل معززة بالسلاح والذخيرة . وبعد حصار دام اربعين يوما تمكنت القوات العثمانية من السيطرة على الابراج كافة . فطلب التسليم وايقاف القتال ووافق السلطان على الطلب ، وتم الاتفاق على انهاء المقاومه وانسحاب الايرانيين من بغداد . ولكن بعض المدافعين رفضوا الانصياع لأمر التسليم فاستمرت الاشتباكات وعمت الفوضى وحوادث النهب والقتل ، وكانت خسائر الجانبين كبيرة جداً ، وقتل معظم رجال الحامية . ولما توقفت الاشتباكات أصدر السلطان اوامره بالمحافظة على حياة السكان المدنيين وعدم التعرض لممتلكاتهم . ثم اتخذ الاجراءات لتنظيم ادارة بغداد ، فعين كجك حسن أغا الانكشارية والياً كما ترك حامية من ١٠٠٠ انكشاري بقيادة بكتاش اغا وأمر الصدر الاعظم باعادة بناء الاسوار والاستحكامات . ثم غادر بغداد عائداً الى القسطنطينية .

تثبيت حدود العراق الشرقية

وامضى الصدر الاعظم مصطفى باشا قرابة الشهرين في بغداد اهتم خلالها باعادة بناء التحصينات ، وبناء ماتهدم من المنازل والاسواق ، واعادة زرع البساتين . وقرر تأمين بغداد من الشرق ، فتحرك على رأس قواته متجهاً شرقاً ، ثم وصل اليه مبعوث من الشاه طالباً انهاء العداوات . ووافق الصدر الصدر الاعظم على العرض وارسل رسالة الى الشاه طالباً منه ان يرسل شخصاً مخولاً بصلاحية مطلقة لتحقيق شروط السلام بين الدولتين . وعين الشاه مبعوثاً لهذه الغاية

وجرت المفاوضات بين الجانبين في زهاب ، وفي ١٤ محرم ١٠٤٩هـ/١٧ مايس ١٦٣٩م تم التوصل الى معاهدة لتحديد الحدود ، وتعد هذه المعاهدة اكمل المعاهدات التي عقدت بين الجانبين العثماني والايراني حتى ذلك الوقت ، وقد ظلت تلك الحدود ، على الرغم من عدم دقة رسمها ، ثابتة تقريباً ، لأكثر من قرنين من الزمن . وشكلت معاهدة زهاب هذه ، نقطة الارتكاز حتى منتصف القرن التاسع عشر ، عندما قامت لجان مشتركة على رسم الحدود . ومما جاء في تلك المعاهدة ان تظل ضمن ولاية بغداد حصنان وبدرة ومندلي ودرتنك ودرنة والسهول الواقعة بين مندلي ودرتنك . كما تبقى اجزاء من هارونية التي تقطن فيها قبائل الجاف وضياء الدين ضمن حدود الولاية . وتهدم قلعة زنجير ، والقرى الواقعة غربها تابعة للسلطان . اما القرى الواقعة شرقها فتابعة للشاه . وخط الحدود في شهرزور هو التضاريس المؤدي اليها . وتظل تابعة للسلطان قلعة قزلجة مع توابعها . ويتعهد الشاه بعدم التحرش والتعرض لقلاع اخسخة وقارص وشهرزور وبغداد والبصرة والمناطق الواقعة ضمن الحدود ، وبعدم تشجيع حركات التمرد ضمن هذه الاماكن .

الاحوال العامة

سببت سنوات الاحتلال الصفوي وحروب الاسترداد العثمانية الكثير من الدمار والخراب في بغداد . وقد تميز تاريخ ولاية بغداد حتى اوائل القرن الثامن عشر بالاضطراب وكثرة تغيير الولاة ، اذ حكم في الحقبة ١٠٤٩ هـ ـ ١٦٣٩ م /١١١٦ هـ ـ ١٧٠٤ م تسعة وثلاثون والياً . لم يترك واحد منهم عند عزله او نقله أثراً يذكر باستثناء اربعة قام احدهم ببناء ثلاثة ابراج لسور بغداد وجامع الأزبك ، وبنى الثاني جامع

الخاصكي ، وقام الثالث بتطهير نهر الدجيل ، اما الرابع فبنى مدرسة قرب جامع القمرية . وقد ساعدت سرعة تغيير الولاة على خلق حالة عدم الاستقرار .

ومن المظاهر الاخرى لهذا العهد، كثرة تمردات الانكشارية، واضطراب حالة الأمن خارج اسوار المدن وادى ذلك الى نتائج اقتصادية سيئة في الزراعة والتجارة . ورافق ذلك كثرة الاوبئة والفياضانات والقحط التي اسهمت في تعطيل الفعاليات البشرية . وبلغ التدهور الاقتصادي درجة بحيث ان علي باشا والي بغداد سنة ١١١٥ هـ / ١٧٠٣ م ارسل في طلب ٤٠٠ كيس اقجه لدفع رواتب الجند المحليين بسبب عجز خزينة الولاية . وذكر الرحالة تافرنييه بغداد في منتصف القرن السابع عشر ان عدد جوامع بغداد عندما زارها كانت خمسة ، اثنان منها حسنا العمارة ، وانه كانت فيها عشرة خانات كلها غير عامرة الا اثنين منها كانا أحسن من سائرها « والمدينة من حيث الحكم العام غير عامرة خالية من مظاهر الجمال عدا الاسواق المستفة ... » .

اما ولاية البصرة ، فقد انتهى حكم اسرة افراسياب في ١٠٨٠ هـ / ١٦٦٩م أثر حملة قادها والي بغداد قرة مصطفى وهرب على اثرها آخر امرائها حسين افراسياب، وبذلك ربطت الولاية بشكل مباشر بالدولة . ولكن الولاية كانت اوضاعها غير مستقرة وعانت موجات من الفوضى والاضطراب سببتها ثورات العشائر . وقد تمكن مانع بن مغامس شيخ قبائل المنتفق من السيطرة على البصرة عام ١١٠٦ هـ / ١٦٩٤ م ولم يتمكن والي بغداد من استعادتها . واعقب ذلك دخول حاكم الحويزة المدينة وضمها الى ممتلكاته عندما اعيدت المدينة للسيطرة العثمانية أثر حملة قام بها والي بغداد ، بعد ان تقوى بنجدات عثمانية ارسلت الى العراق .

مكتبة احمد
كافة المناهج الدراسية
مجاور الباب الاعظم